كلمة ميشال أسمر في حفلة تأبينية

أقامتها جمعية أهل القلم لميشال شيحا

آذار ١٩٥٥

ميشال شيحا وشخصية لبنان

أيها الحفل الكريم،

منذ نيّف وسنة اعتلى هذا المنبر بدعوة من الندوة اللبنانية الرئيس حبيب أبو شهلا والأساتذة ايلي تيان وغسان تويني ورينه حبشي ومحيي الدين النصولي وشارل حلو وقدموا للاستاذ ميشال شيحا باسم مئات الحضور وعشرات الألوف من الغائبين، ضمة من ازاهير قلوبهم وأفكارهم عربونا لقدرهم ومحبتهم رجلا كان قد نال قبل بضعة أسابيع لقب دكتور شرف من جامعة ليون وقلد وسام الأرز الرفيع.

وقبل أن تنقضي السنة غاب هذا الوجه عنا، أو بالأحرى غابت طلته عن عيوننا ليحيى في قلبنا وفكرنا. وما هذه البادرة اليوم لجمعية أهل القلم في إحياء ذكرى ميشال شيحا إلا أحد الأدلة على أن الرجل حي بيننا تعيش رسالته في أعماق قلوبنا.

بالأمس واليوم، أيها السادة، مجّد ميشال شيحا صحفيا مثاليا وشاعرا كبيرا ومفكرا عميقا واقتصاديا عالما ومثقفا مطلعا ومواطنا محبا جاهدا وانسانا خيرا وحكيما ناصحا موجها.

كل هذا صحيح أيها السادة فالتمجيد لاقى أهله. بل أكثر من ذلك، وإني أستميح خطباءنا فأقول : لن تتجلى حقيقة هذه العظمة في صحافته الرسولية وشعره الكبير وفكره العميق وعلمه في الاقتصاد والمال وثقافته المبدعة ووطنيته المحبة الجاهدة وانسانيته الخيرة وحكمته الموجهة الا في الرجوع الى مصدر كل ذلك في كتب هذا الرجل وفي ما حقق من سيرة مثالية متزنة . يبقى أن نشكر الخطباء على أنهم استوحوا هذه المصادر ليدلوا عليها ويدعوا الى اكتنازها في العقل والقلب والضمير.

غير أن الأهم يبقى. وإن نحن لم ندرك هذا الأهم، فلت من أيدينا الخيط الذهبي الذي يربطنا بالرجل ويربط وجوه نشاط هذا الرجل بالينبوع الذي استقى منه وتغذى وعاش. أجل أيها السادة إن عمر هذا الرجل ونتاجه حاضران هنا، باديان لكل عين، صامدان على الزمن. ولكن ما يجدر بنا أن نشير اليه ونظهره هو الأساس الذي ارتكز عليه هذا العمل وهذا النتاج، هي القوة الخفية التي تكمن في جوهرهما وتولدهما وتبلورهما، هو الإيمان والمحبة اللذان كانا فيه ومنه يلفان كيانه منذ أن يفسح حتى لفظ نفسه الأخير واللذان يغلغلان في كل كلمة خطها حبرا على ورق وفي كل خطوة خطاها – يهيمنان على جسده وروحه أجمعين.

فان نحن أدركنا هذا الأهم أيها السيدات والسادة، استوى عندنا ميشال شيحا في حقيقة وجوده – وإن فاتنا هذا، ظلمنا الرجل وغاب عنا في صميمه.

والآن، أي هو الينبوع الذي أمد عمل ميشال شيحا ونتاجه بماء الحياة ؟ ما هو الإيمان الذي انبثق عنه هذا العمل وهذا النتاج ؟

- الينبوع مزدوج : الله ولبنان.

والايمان ايمان كياني بالله وبلبنان.

لغيرنا، أيها السادة، ولنا في مناسبة غير هذه، أن نتحدث عن ميشال شيحا المؤمن المتعبد. غير أننا نود لو نلاحظ هنا أن ميشال شيحا نطلق في تقديره من لبنان مؤمن بالله وبالروحانيات. وهكذا، عندما كان يعايش لبنان في قلبه وعقله، كان يوحد جباله ووديانه وسهوله بالشأن الإلهي، حتى غدت ركيزة عمله الله في لبنان أو لبنان مع الله.

نكتفي بها خاطرة الان قد نقيم الدليل عليها في وقت آخر، ولنعد الى لبنان. واليكم هذا القول :

"لبنان ينتسب تقليدا الى الشرق والى الغرب معا وبالتالي الى تأليف منسجم بين أرقى الحضارات. وهو بالرغم من صغر ومساحة أرضه، يدعو لتأدية رسالة دولية لا تضطلع بها الا الإمم الكبيرة. فدوره هو دور توفيق أخوي بين تنوع النفوس والثقافات.

أيها السادة،

لن أطلب منكم الآن أن تكتشفوا صاحب هذا القول، وإن كان أكثركم قد نسبه الى ميشال شيحا. إن تعريف لبنان بهذه الصورة رسمه الرئيس ايزنهاور منذ سنتين تماما في حفلة تقديم سفير لبنان الدكتور شارل مالك أوراق اعتماده، في البيت الأبيض في واشنطن. ولو عدنا، أيها السادة الى ثلاثين سنة خلت، أو لو افترضنا لحظة أن رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وودرو ويلسن الذي يجاور ربه منذ ثلاثين سنة – لا يزال في قيد الحياة مجمدا في واقع العام ١٩١٩ ، وشهد المظهر الدبلوماسي الأميركي – اللبناني في مقر أكبر رئاسة عصرية، لوقف مخبولا لما يقوله خلفه لممثل لبنان إذ أنه عندما أطلق مبادئه الأربع عشر كان لبنان في ذهنه – وهذا إن كان للبنان الحظ يومذاك أن يكون حاضرا في ذهنه – بلدا غير واضح المعالم، غير مستقر في جغرافية أو تاريخ.

فماذا عدا اذن مما بدا ليشهد ايزنهاور للبنان بما شهد ؟

أيها السادة ،

عام ١٩١٩ كان ميشال شيحا في الثامنة والعشرين من عمره وكان قد أنهى دروسه الثانوية في كلية القديس يوسف عام ١٩٠٦ ثم قضى بعدها ثلاث سنوات في انكلترا يحصل العلوم التجارية والمالية يعود منها الى لبنان ليغادره مكرها الى مصر عام ١٩١٥ يتابع دروس الحقوق في جامعة القاهرة ثم يؤوب الى وطنه.

وليسمح لنا الصديق ايلي تيان أن نستعمل هنا لغته الشعرية الرمزية في كلامنا عن هذه المرحلة من حياة ميشال شيحا.

ينهي ميشال شيحا إحدى قصائده ببيت يقول فيه :

" لقد أعطيتني يا رب قلبا يكبر علي واضيء بدفقه".

في هذا الاعتراف بهذا القلب الكبير، يكمن مفتاح السر في شخص ميشال شيحا، وهو أيضا يكشف لنا عن جميع الآفاق التي جابها ويجعلنا نتبين معالم مغامراته الكبرى. فالواقع أن في حياة ميشال شيحا مغامرة كبرى. فمنذ سنّه العشرين التقى بالسجينة الحسناء. كان ذلك خلال الحرب العالمية الأولى يوم كانت الأمبراطوريات تتفكك والأوطان تنهار. وكانت السجينة جميلة حتى العبادة شغوفة بالحرية حتى الجنون، يزيد في رونقها مسحة من الألم – ألم القيود تثقل كاهلها. فملكت عليه وكانت بداية المغامرة. لأجل تحريرها سافر الى مصر، لأجل إعادة الإشعاع الى عينيها جمع بعض الرفاق في العمل والنضال، وفي سبيل إبراز غنى تراثها وطاقة امكانياتها دخل المعترك السياسي فانتخب نائبا عن بيروت عام ١٩٢٥ على لائحة العمرين بيهم والداعوق بالرغم من مقاومة السلطة المنتدبة لترشيحه ثم قاد حملة تجهيز اللباس الذي يليق بها ويلائم وضعها ويضمن لها الإستمرار والإزدهار.

أيها السادة ، لا أخالكم الا أن أدركتم أن هذه السجينة كانت مجسمة في لبنان. وليس في تجسيم لبنان بعروس ميشال شيحا، بعروس من لحم ودم، آية مبالغة. صدقوني وصدقوا كل من عرف ميشال شيحا عن كثب أو تابع قرائته بإمعان : كان لبنان ضروريا لميشال شيحا متغلغلا في نياط قلبه وشرايين جسده، أحبه حبا ملموسا، ولازمه ليلا ونهارا في حوار صميم بناء.

واللباس الذي ألبسه ميشال شيحا لبنان هو دستوره الذي وضع تصميمه وصاغ فقراته سياسيا قوميا منيعا.

وبعد انتهاء أجل نيابته عام ١٩٢٩، أحس صاحب ذلك القلب الكبير أن مجال العمل تحت قبة البرلمان ضيق وأن السياسة العملية محدودة الآفاق، على غير موازاة بين الجهد المطلوب والنتيجة المرتقبة، وكأنه، على وعي منه أو لا وعي، لمس الحاجة الى العمل السياسي الشامل، الى القيادة الموجهة، الى الفكر الحكيم يلتزم النضال فوق الحزبيات والارتباطات، في سبيل لبنان الجديد. ولبنان كان يومذاك فتى يتلمس طريقه. فأخذ ميشال شيحا على نفسه أن يخط له سبيله السوي. كان عليه أن يعيد إنشاء الدولة اللبنانية والأمة اللبنانية مع بيروت العاصمة. وكان عليه أن يدرأ خطر إمكانية أن يبدو هذا الوطن وكأنه من عمل المحافل الدولية المصطنع، فيدخله في استمراره التاريخي ويوقظ الذاكرة عند اللبنانيين، بعد سبات عدة قرون، ليوطدهم في رسالتهم. كان عليه أن يوضح هذه الرسالة عبر التاريخ القديم والجديد وأن يستوحي هديها مجددا معالمها في الزمان والمكان.

وكأن الروح القدس هبط عليه عند ذاك فنصبه هو نفسه رسولا لبنانيا للبنان والعرب والعالم.

فنشأ جريدته "له-جور" عام ١٩٣٤ وراع طوال عشرين عاما – منذ ذلك التاريخ حتى قبيل وفاته بثلاثة أيام، يسبر غور الكتب ويعايش كل جامد وحيّ مرّ في هذه البلاد، بثقافة عميقة ووعي مدرك حتى حدد شخصية لبنان وأقامها إيمانا في قلب وشريعة في ضمير وتراثا غنيا في حياة.

وزاده الروح القدس هديا فأصبح وكأنه يدرك نفس الشعوب ونفوس حكامهم من ساحل الأطلسي الى شواطىءالأبيض المتوسط، ومن شاطىء المحيط الهندي الى ساحل المحيط الهندي.

فكان المعلم وطمح الكثيرون أن يكونوا التلاميذ، وفعلت مدرسته هنا في نفوس أفراد الشعب وعند النخبة التي بشرت بها قاعدة في الشرق والغرب، فكان لنا هذا التعريف للبنان يرسمه الرئيس ايزنهاور وهو واحد من الف، وكان للبنان مكانه المرموق تحت الشمس.

أيها الحفل الكريم،

عندما سرى نبأ وفاة ميشال شيحا، لماذا، ومرض الرجل كان يؤذن بذلك، لماذا ذهلت العقول وجمد الدم في العروق ؟ أمام عظمة الصدمة لم نتبين السبب في حينه. غير أننا سريعا ما أدركناه. فإن كانت أحدية الذات بين رجل وفكرة قد تحققت يوما، فقد لمسنا ذلك في مصير ميشال شيحا. اذ قد قام في إذعان الأجيال الجديدة ترابط وثيق بين حياة ميشال شيحا وديمومة لبنان جعلنا لا نستطيع أن نتصور تفككا بينهما، غيابا هنا وبناء هناك.

وهذا ما دعا شارل حلو أن يقول : لقد مات رجل وكأن لبنان اتخن جراحا.

وهذا ما حمل كمال جنبلاط أن يصرح في مجلس الأمة " إن غياب ميشال شيحا يضع لبنان في حداد. وهذا الغياب خسارة جسيمة مؤلمة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء، فهو قد بشّر طوال حياته بمبدأ التعايش المحب بين الفريقين بانتظار صهر جميع العناصر في وحدة وطنية كاملة."

أيها السيدات والسادة،

مكنتني الندوة اللبنانية في السنوات العشر الأخيرة من توثيق عرى الصداقة بيني وبين قادة الرأي في البلاد فاستطعت هكذا أن أكتشف عند الكثيرين منهم عقولا نيّرة وإخلاصا وطنيا صافيا وروحا قومية بناءة. وهكذا ليس في نيتي أن أغمط حق أحد منهم في نهضة وطننا الحديثة. ولكني على يقين أنهم يوافقونني على أن ميشال شيحا كان معلم الجميع وأن شخصية لبناننا اليوم مدينة له بتحديدها وبروزها واشعاعها.

لقد كان نقطة الثقل في لبنان. وبعد غيابه يتوجب على جميع اللبنانيين، حكومة وشعبا، أن يزيدوا في الحذر والسهر على وطنهم ويجهدوا في الحفاظ على رسالته.

لقد سلمنا ميشال شيحا وطنا بناه قلبه وعقله بالمحبة والتيقظ وعرق الجبين. فلنحذر أن ننبه الى الماضي. رسالة ميشال شيحا للمستقبل، وعلى أصحاب السلطة عندنا، وعلى الصحف الوطنية، وعلى خطباء الليلة، وعلى أرباب الفكر وحملة الأقلام، وعلى مؤسسة ميشال شيحا، وعلى كل صاحب مسؤولية في هذا البلد أن يكونوا أمينين لهذه الرسالة فيستوعبوها كاملة ويعمموها خميرة بعث ونهضة وأمل في لبنان والشرق العربي.

وأنتِ ، يا سيدتي، يا من فصل عنك رفيق عمرك كما فصل عن لبنان وعنا، أليس لك ولنا جمع كتاب "التسابيح" ونشره صلة وصل دائم بينه وبيننا فكأننا وإياه في الله نتسامر، وفي لبنانه نعمل لمجد لبنان ؟

لذكراه، يا سيدتي، سنبقى حافظين وعلى عهده سنظل قائمين مخلصين.

ميشال اسمر